الفلاسفة المسلمون وفن الشعر الأرسطي في دراسات المستشرقين الألمان

د. زياد صالح الزعبي

جامعة اليرموك

- ١ -

عرف العرب كتاب الشعر الأرسطي منذ القرن التاسع الميلادي فقد اختصره الفيلسوف العربي الكندي (ت ٢٥٢هـ) ، كما ترجمه بعد ذلك ، عن السريانية متى بن يونس (ت ٣٢٨هـ) ، وشرحه أو اختصره الفلاسفة المسلمون : الفارابي (ت ٣٣٩هـ) ، وابن سينا (ت ٤٢٨هـ) وابن رشد (ت ٥٩٥هـ)[١] .

وعرفت أوروبا هذا الكتاب أول مرة في القرن الثالث عشر من خلال ترجمة لاتينية وضعها Wilhelm von Moerbeke ، لم تترك في حقيقة الأمر أي أثر أو صدى في العالم الأوربي آنذاك . وفي القرن نفسه ترجم هرمانوس ألمانوس Hermannus Alemannus شرح ابن رشد لكتاب الشعر الأرسطي ، واعتماداً على هذه الترجمة ظهرت أول طبعة للكتاب في أوروبا تحت عنوان :

Determinatio in poetria Aristotilis في البندقية عام ١٤٨١م . لكن هذا العمل لم يستطع أن يقدم لقرائه إلا صورة غامضة جداً عن المضمون الحقيقي لكتاب الشعر . وظل الأمر كذلك حتى نشر جيورجيو فلا Giorgio Valla ترجمة لاتينية للكتاب في البندقية عام ١٤٩٨م ، عدت نقطة البداية الحقيقية لمعرفة كتاب الشعر في أوروبا[٢] .

ومنذ ظهر كتاب « الشعر » الأرسطي في أوروبا أصبح محوراً لعدد ضخم من الدراسات التي كرست للبحث في أصوله ، ونصه ، ونقده ، وقضاياه ، وترك ، بالتالي ، آثاراً عميقة وواسعة في تاريخ الآداب الأوروبية جميعها[٣] .

أما في العالم الإسلامي فقد كاد الاهتمام بهذا الكتاب ينحصر في دائرة الفلاسفة الذين رأوا فيه جزءاً من آثار أرسطو الفلسفية التي اهتموا بها ، ولذا فإن الكتاب لم يترك آثاراً عميقة كتلك التي تركها على الأدب والنقد في أوروبا ، وإن ترك بعض آثار على النقد العربي يمكن تبينها وتتبعها في بعض الكتب النقدية والبلاغية[٤] .

لقد كان من الطبيعي أن يفيد الغربيون من الترجمات والشروح والتلخيصات العربية لكتاب الشعر « الأرسطي » ، وبخاصة أن هذه الترجمات والشروح قد ظهرت في فترة مبكرة ، وأنهم كانوا بحاجة ، في إطار اهتمامهم بنقد نصّ كتاب الشعر ، إلى الاطلاع على صوره ورواياته الأخرى ، ومن بينها الصور والنقول العربية ، ومن ثم فقد كان اهتمام الغربيين بالترجمة أو الشروح أو التلخيصات العربية مرتبطاً بعملهم بهذا الكتاب وتحقيق نصّه[٥] ، وهذا أمر يبدو جلياً في عمل لازينو F. Lasinio الذي نشر لأول مرة تلخيص ابن رشد لكتاب الشعر في بيزا عام ١٨٧٢م ، وفي عمل مرجليوث Margoliouth الذي كان أول من نشر ترجمة متى بن يونس لكتاب الشعر الأرسطى عام ١٨٨٧م في لندن ، ونشر معها كذلك فن الشعر من كتاب الشفاء لابن سينا ، ويظهر أن مرجوليوث قد « توخى بهذا النشر غرضين اثنين :

١ ـ تعريف الغرب بالصورة التي اتخذها كتاب الشعر عند الشرقيين ، وما كان لها من أثر في نظرتهم إلى الشعر .

٢ ـ تقريب الترجمة العربيـة إلـى المشتغلين بالدراسات الأرسطية ، بحيث يتيسر لهم الانتفاع بهذه الترجمة في تحقيق النص اليوناني »[٦] .

وهذا ما بدا واضحاً ، بعد ذلك ، في اعتماد عدد من الباحثين الغربيين في كتاب الشعر على الترجمة العربية لتصحيح النص اليوناني ، بل إن هذه الإفادة هي التي دفعت أكاديمية العلوم في فيينا إلى تأليف « لجنة لنشر الترجمات العربية لمؤلفات أرسطو » تألفت من مجموعة من العلماء ، قـررت تكليف د. ياروسلاوس تكاتش القيـام بنشر ترجمة متى بن يونس ودراستها . وقد قام تكاتش بعمله هذا على مدى عشرين عاماً ، وأصدر كتابه Die arabische Übersetzung der Poetik des Aristoteles Und die Grundlage der kritik der Grieschen Textes .

« الترجمـة العربيـة لفن الشعـر الأرسطي وقواعد نقد النص اليوناني » . وقد جاء هذا الكتاب في جزأين صدر الأول عام ١٩٢٨ . وصدر الثاني عام ١٩٣٢ . وكان عمل تكاتش عملاً كبيراً عني بصورة رئيسة بنص ترجمة متى بن يونس وتحقيقه ، كما وقف عند كتابات الفلاسفة المسلمين عن « الشعر » الأرسطي ، وبالذات ما كتبه ابن سينا وابن رشد ، أما الفارابي فلم تكن كتاباته قد ظهرت آنذاك[٧] .

وفي عام ١٩٣٤ نشر Richard Walzer مقالة بعنوان :

Zur Traditiongeschichte der aristotelischen Poetik

« في الرواية التاريخية لفن الشعر الأرسطي » . عالج فيها مسألة رواية « فن الشعر » عند العرب ، ومصادر الفلاسفة المسلمين في شروحهم لكتاب الشعر[٨] .

ونشر آرثر أربري A. Arberry رسالة الفارابي « رسالة في قوانين صناعة الشعراء » عام ١٩٣٨م[٩] . وبهذا يكون المستشرقون قد نشروا الترجمة العربية القديمة لكتاب الشعر الأرسطي ، وشروح الفلاسفة العرب له .

وقد صدرت وقتذاك دراسة للمستشرق الإيطالي غابريلي Gabrieli (عام ١٩٢٩) حول « جمالية الشعر العربي من خلال شرحي ابن سينا وابن رشد لكتاب الشعر الأرسطي » . وفي هذه الدراسة تجاوز غابريلي البحث في النص ونقده ، وعمد إلى دراسة شرحي ابن سينا وابن رشد من وجهة نظر تاريخ الأدب العربي ، وتاريخ الثقافة العربية ، ووقف عند بعض المسائل الفنية مثل فكرة التخييل الواردة عند ابن سينا(١٠) .

- ٢ -

إن العرض التاريخي الموجز لاشتغال المستشرقين الغربيين بالترجمة والشروح العربية لكتاب الشعر الأرسطي تظهر مدى اهتمامهم بالنص ، وأصوله ورواياته ، ونقـده أو ما اصطلح عليه بالألمانيـة Textkritik ، وإن المستشرقـين الألمانيين تكاتش و فالتزر لم يخرجا في عمليهما عما قام به الآخرون . ويظهر ان استكمال مهمة نشر النصوص المتعلقة بكتاب الشعر الأوسطي ، قد صرف الاهتمام منذ نهاية الثلاثينيات من هذا القرن عن العودة إلى هذه النصوص لدراستها وبحث القضايا التي تتضمنها . وقد ظل الأمر كذلك حتى ظهر كتاب حازم القرطاجني « منهاج البلغاء وسراج الأدباء « عام ١٩٦٦ الذي شكل نقطة انطلاق جديدة للبحث مجدداً في الترجمة والشروح العربية لكتاب الشعر الأرسطي ، وذلك لأن حازماً القرطاجني قد بنى تصوراته النقدية على أسس أرسطية استقاها من كتابات الفلاسفة المسلمين ، وبخاصة الفارابي وابن سينا ، وشكل بذلك استثناء ، خرق التصور السائد لدى المستشرقين بأن كتاب الشعر الأرسطي لم يترك أثراً على النظرية الأدبية عند العرب . فبعد صدور كتاب « منهاج البلغاء ... » بحوالي ثلاث سنوات صدرت دراسة المستشرق الألماني فولفهارت هاينريكس Wolfhart Heinrichs :

Arabische Dichtung und Grieschische Poetik. Hazim Al - Qartağannis Grundlegung der Poetik mit Hilfe Aristotelischer Begriffe. Beirut 1969 .

« الشعر العربي وفن الشعر اليوناني ، أسس فن الشعر عند حازم القرطاجني استناداً إلى المفاهيم الأرسطية » (حرفياً : بمساعدة المفاهيم الأرسطية) .

ثم ظهرت عام ١٩٧٥ دراسة أخرى عن حازم القرطاجني للمستشرق الألماني غريغور شولر Gregor Schoeler بعنوان :

Einige Grundprobleme der Autochthonen und der Aristotelischen Arabischen Literaturtheorie Hazim Al - Qartağannis Kapital uber die Zielsetzungen der Dichtung und die Vorgeschichte in ihm Dargelegten Gedanken .

« بعض الإشكاليات الأساسية في نظرية الأدب العربية العربية ، والعربية الأرسطية ، باب أغراض الشعر عند حازم القرطاجني وأصول الأفكار المعروضة فيه » .

وبهذين الكتابين تبدأ مرحلة جديدة في دراسة الآثار الأرسطية في النظرية الأدبية عند العرب من خلال العمل الرئيس الذي قدمه حازم القرطاجني ، وكذلك فقد عاد هذان الباحثان إلى دراسة شروح الفارابي وابن سينا لكتاب الشعر الأرسطي ، انطلاقاً من الاعتقاد بأنهما كانا المصدرين الرئيسين اللذين اعتمد عليها حازم القرطاجني في تصوراته ومفاهيمه النقدية(١١) . وقد أدت معرفة كل من هاينريكس وشولر بهذا الحقل من النظرية الأدبية Literaturtheorie عند العرب إلى مواصلة البحث فيه ، وعلى نحو أكثر دقة وأكثر تفصيلاً ، فكتب هاينريكس عام ١٩٧٨ دراسة بعنوان :

Die Antike Verknüpfung von Phantasia und Dichtung bei den Arabern

« الترابط القديم بين الخيال والشعر عند العرب » درس فيها على نحو تفصيلي نظرية الخيال كما جاءت في كتابات الفارابي(١٢) .

وكتب شولر عام ١٩٨٣ دراسة بعنوان :

Der poetische Syllogismus. Ein Beitrag Zum Verstandnis der logischen Poetik der Araber .

« القياس الشعري . مساهمة في فهم فن الشعر المنطقي عند العرب » .

بحث فيها مفهوم القياس وأصوله وصوره ووظيفته في التأثير على المتلقي اعتماداً على آراء الفلاسفة المسلمين ، كما بحث في تأثيره على النظرية الأدبية العربية الخالصة .

وإضافة إلى أعمال هاينريكس وشولر يمكن أن تذكر هنا دراسة كريستوف بورغل J. Christoph Bürgel المعنونة :

Die beste Dichtung ist die Lügenreichste " Wesen und Bedeutung eines literarischen Streites des arabischen Mittelalters im Lichte komparatistischer Betrachtung" .

« أحسن الشعر أكذبه . الجوهر والمغزى لخصومة أدبية عند العرب في العصر الوسيط في ضوء وجهة نظر مقارنة » .

فقد وقف بورغل في دراسته هذه عند مسألة الصدق والكذب كما جاءت عند الفلاسفة المسلمين ، الفارابي وابن سينا ، وابن رشد ، وربطها بالمفاهيم الأرسطية وتجلياتها في الشروح والتلخيصات العربية ، كما عرض للمسألة نفسها عند حازم القرطاجني كذلك(١٣) .

- ٣ -

إن هذه الأعمال مجتمعة تمثل اتجاهاً جديداً في تناول النظرية النقدية من خلال كتابات الفلاسفة وشروحهم لكتاب الشعر الأرسطي . وهي في بنيتها ومنهجها تفارق المنهج التاريخي التحقيقي السابق ، وتصب اهتمامها على القضايا المنبثقة من اشتغال العرب بالآثار الأرسطية بعامة ، وبكتاب الشعر بخاصة .

فكتاب هاينريكس « الشعر العربي وفن الشعر اليوناني » ، الذي يمثل بداية هذه المرحلة الجديدة في الدراسات الاستشراقية التي تبحث في نظرية الأدب عند العرب ، درس ، وعلى نحو غير مسبوق ، نظرية النقد العربي القديم من خلال صورها ومصادرها العربية العربية ، والعربية الأرسطية ، كما أنه يمثل بداية جديدة لدراسة كتاب الشعر الأرسطي من خلال كتابات الفارابي وابن سينا عنه وتلخيصيهما له ، وفاتحة لدراسة كتاب « منهاج البلغاء » الذي تشكل من خلال التقاء التصورات النقدية العربية الخالصة والأفكار العربية الأرسطية وتمازجها(١٤) .

ولذا فقد جعل هاينريكس كتابه في ثلاثة أبواب رئيسة ، خصص الأول منها لدراسة النظرية النقدية العربية الخالصة وقضاياها وتصوراتها دراسة مسهبة (ص١٩ - ١٠٤) واعتمد فيها على الكتب النقدية العربية بدءاً بكتاب ثعلب « قواعد الشعر » وحتى « المثل السائر » لابن الأثير .

أما الجزء الثاني فدرس فيه « فن الشعر الأرسطي عند العرب » تاريخه وروايته وشروحه ، وقضاياه ، وإشكالياته (ص١٠٥ - ١٧٠) في حين خصص الجزء الأخير لترجمة المنهج الثالث من « منهاج البلغاء » وهو :

« في الإبانة عما تتقوم به صنعتا الشعر والخطابة من التخييل والإقناع ... »(١٥) .

إن الجزء الثاني من الكتاب الذي درس فيه المؤلف كتاب الشعر الأرسطي عند العرب هو الذي يحظى بالاهتمام هنا ، لأنه يمثل عودة المستشرقين لدراسة فن الشعر الأرسطي عند الفلاسفة المسلمين ، وهي عودة لم تغفل الدراسات التاريخية التوثيقية السابقة ، بل اعتمدت عليها اعتماداً كبيراً ، وإن تجاوزتها أحياناً من خلال توظيف مادة معرفية جديدة لم تكن متيسرة للسابقين ، وهذا ما يلمسه الباحث من خلال عودة

هاينريكس للبحث في الأصول السريانية التي نقل عنها كتاب « الشعر » إلى العربية ، ومن خلال العودة إلى ترجمة متى بن يونس وإشكالياتها ، اعتماداً على التصورات التي رسختها دراسات المستشرقين السابقين الذين شكلوا مرجعية أساسية Authorität للمؤلف(١٦) .

أما حين انتقل إلى كتابات الفلاسفة التي تتناول كتاب الشعر الأرسطي ، فقد قام بمعالجة هذه الكتابات من خلال عرضها الذي اعتمد فيه على الترجمة أولاً ، ثم مناقشة القضايا البارزة فيها ثانياً ، مراوحاً بين البحث التاريخي التحقيقي للمفاهيم والأفكار المطروحة فيها والدراسة التحليلية لهذه المفاهيم والأفكار ، فقد حاول هاينريكس أن يتتبع أصول مصطلحي المحاكاة والتخييل ، في التراث اليوناني وبيان ما طرأ عليهما من تحول في إطار النظرية العربية ، وكيفية تأثيرهما وتشكلهما في نظرية الشعر عند حازم القرطاجني(١٧) .

لقد عاد هاينريكس لبحث مصطلح التخييل عند الفارابي بخاصة ، إدراكاً منه لمحورية هذا المصطلح في إطار النظرية الأدبية عند الفلاسفة فكتب دراسته الموسعة عن « الترابط القديم بين الخيال والشعر عند العرب » بحث فيها على نحو معمق مفهوم التخييل وحده في إطار فن الشعر المنطقي logische Poetik ، وتتبع دلالاته واشتقاقاته عند العرب ، ووقف مطولاً عند تصورات الفارابي وفهمه للتخييل ودوره في النظرية الشعرية والدينية على حد سواء ، كما بحث العلاقة بين التخييل الشعري والتخييل الديني .

اعتمد هاينريكس في بحثه هذا على آثار الفارابي الفلسفية بخاصة محاولاً ربطها بأصولها اليونانية ، من أجل تبين طبيعة مفهوم التخييل الذي يرى أنه مصطلح انتقل من الثقافة اليونانية إلى الثقافة العربية ، وأن تحولات قد طرأت عليه أثناء عملية الانتقال هذه ، ومن هنا فإنــه يرى أن بحثه يشكل مساهمـة في الدراسة المقارنـــة للتثاقف . ولذا فقد

حاول هاينريكس البحث عن أصول مفهوم التخييل المرتبط بالمحاكاة والذي يشكل أساس نظرية الشعر عند الفارابي ، لكنه وصل إلى نتيجة غير قاطعة تتمثل في إمكانية أن يكون هناك مصدر يوناني يعود إلى مدرسة الإسكندرية ، لكنه ضاع أو لم يصلنا ، أو أن الفارابي نفسه قد وضع مصطلح التخييل لتمييز الأقاويل الشعرية[١٨] . أما مصطلح المحاكاة فإن مصدره لم يمثل مشكلة ، ذلك لأنه مأخوذ من الشعر الأرسطي ، وبالتالي فقد كانت كلمة محاكاة مقابلاً للكلمة اليونانية mimesis لكن الأمر المهم في هذا المصطلح هو تحول دلالته الأصلية التي تعني محاكاة الفعل ليصبح عند العرب دالاً على « اللغة التصويرية » Bildersprache . ويعيد هاينريكس هذا التحول إلى المصطلح السرياني meddammyānuṯa الذي ترجمه متى بن يونس بكلمتين هما : التشبيه والمحاكاة ، ولأن المحاكاة بمفهومها الأرسطي لم تكن مفهومة لدى العرب ، فقد كان من السهل تحويرها باتجاه اللغة التصويرية ، وهو تحوير تبناه من جاءوا بعد الفارابي[١٩] .

فإذا انتقلنا إلى أعمال غريغور شولر فإننا واجدون عملين يقابلان عملي هاينريكس . الأول كتابه « بعض الإشكاليات الرئيسة في نظرية الأدب العربية الخالصة والعربية الأرسطية » والثاني دراسته عن « القياس الشعري » ، وذلك من حيث بنية هذين العملين ومنهجهما .

فالكتاب يتصف بالشمولية ، ككتاب هاينريكس ، فهو يقوم بدءاً على دراسة فصل من كتاب حازم القرطاجني « منهاج البلغاء » ، ولكنه في سبيل ذلك يدرس التصورات النقدية العربية الخالصة ، والتصورات العربية الأرسطية كما جاءت في كتابات الفارابي وابن سينا . ولذا فقد قال شولر : إن كتابه يترسم خطى كتاب هاينريكس في البنية والمنهج ، ولكنه يفارقه بمعالجته للأفكار والتصورات النقدية العربية العربية ، والعربية

الأرسطية التي تقود إلى حازم في باب واحد من الكتاب وليس في أبواب منفصلة ، كما فعل هاينريكس[٢٠] . ولكن ورغم هذا القول فإن القارئ يرى أن شولر قد تجاوز ما بدأه هاينريكس حين تخلص من البحث في الجانب التاريخي لكتاب الشعر عند العرب - وهو أمر لم يعد الباحث بحاجة إليه - ، وحين انصرف لمعالجة قضايا نقدية أساسية ، فقد درس في الباب الأول من الكتاب ، أهداف الشعر وأغراضه محللاً الآراء والمواقف النقدية العربية الخالصة والعربية الأرسطية ، ثم انتقل بعد ذلك إلى دراسة هذه المسألة عند حازم من خلال تأثيرات الآراء والأفكار السابقة عليه وحضورها في كتابه . وفعل الأمر نفسه في البابين الثاني والثالث حين تحدث عن « أنماط الشعراء وشروط الشعر » ، وعن « الحيل الفنية في الشعر والخطابة »[٢١] ومن الملاحظ في مناقشات شولر هذه أنه لم يتوقف عند كتاب « الشعر » وأثره على حازم فقط بل وسع بحثه ليشمل تأثيرات كتاب « الخطابة » الأرسطي .

أما الجزء الأخير من الكتاب ، فقد خصصه لترجمة المنهج الثاني من القسم الرابع من منهاج البلغاء المعنون : « في الإبانة عن طرق الشعر من حيث تنقسم إلى فنون الأغراض ... »[٢٢] .

إن كتاب شولر هذا يمثل نقلة مهمة في دراسة النقد العربي القديم ، وبخاصة في دراسة جهود الفلاسفة المسلمين في النقد ، التي وضعت في الإطار العام للتراث النقدي العربي من جانب ، وفي إجراء مقارنات بين معطياتها ومعطيات التراث اليوناني من خلال كتابي « الشعر » و « الخطابة » الأرسطيين وشروحهما ، وكذلك مقارنتها بالآراء والمواقف النقدية الأوروبية ، وإن حدث هذا على نطاق محدود ، من جانب آخر[٢٣] .

فعندما بحث شولر هدف الشعر عند ابن سينا حاول بدءاً أن يتبين التأثيرات الأرسطية اليونانية فيه ، ومدى فهمه للأصول ، وتحويره لها ، فوقف عند الهدف المزدوج للشعر عنده القائم على المتعة والفائدة ، أو على المتعة (التعجيب) فقط ، وحاول ردهما إلى أصول أرسطية ترجمت إلى العربية بصورة خاطئة ، وفهمت تبعاً لذلك على نحو يبتعد فيها عن الأصل . فالرعب (Gruseln) في الشعر الأرسطي حل مكانه عند ابن سينا التعجب (Erstaunen) ، في حين وضع مصطلح الانفعال (Reaktion) مقابل المصطلح الأرسطي الخوف (Furcht) ، كل هذا اعتماداً على أن ابن سينا اطلع على ترجمة عربية غير ترجمة متى بن يونس - كما يرى شولر - وبالتالي فإن تصورات ابن سينا عن هدف الشعر تقترب من تصورات هوراس الذي تحدث عن المتعة والفائدة في الشعر (Utile - dulce) ، وهذه التصورات كانت شائعة في الشعريات القديمة منذ القرن الخامس قبل الميلاد[٢٤] .

بعد هذا البحث في أصول المصطلحات ومصادرها وتحولاتها يصل الباحث إلى الحديث عن هدف الشعر عند حازم القرطاجني ، ويبين كيفية تبنيه للأفكار السينوية ، ودمجها في نظريته عن هدف الشعر . وقد أخلص الباحث لمنهجه هذا في تناوله لقضاياه كلها .

أما دراسته عن « القياس الشعري » فهي تمثل استمراراً لبعض ما أثاره في كتابه السابق ، كما أنها تمثل بحثاً مقابلاً لبحث هاينريكس حول « الترابط القديم بين الخيال والشعر عند العرب » من حيث المنهج ، واستمرار بحث قضايا فن الشعر المنطقي على نحو متخصص دقيق .

تناول شولر في هذا البحث مفهوم القياس الشعري ، وأصوله وصوره ، ولماذا سمي هذا القياس « شعرياً » ، كما عرض لمفهومي المحاكاة والتخييل في إطار حديثه

عن المصطلحات التي استعملها الفلاسفة المسلمون للتعبير عن الأقوال التصويرية (bildliche Aussage) ، وإضافة إلى هذا فقد وقف عند تأثير القياس على السامعين ، وهدف المتحدث منه .

لقد استند بحث شولر « القياس الشعري » إلى المصادر الفلسفية بصورة رئيسة ، وبخاصة الآثار الفلسفية الكاملة للفارابي وابن سينا ، وأصولها الأرسطية ، ولذا فقد جاء البحث في معظمه بحثاً لنظرية الشعر المنطقي ، كما تجلى عند الفلاسفة المسلمين ، مع إشارات إلى تأثير التصورات العربية الخالصة على هذه النظرية ، غير أن الباحث التفت في نهاية بحثه إلى مدى تأثير « القياس الشعري » على نظرية الشعر العربية الخالصة ، فدرس إمكانية تأثير القياس الشعري على الجرجاني ، مقرراً في النهاية أن عبد القاهر لم يتأثر به[٢٥] .

إن هذا الحكم يقود للحديث عن آراء المستشرقين الألمان في تأثير « الشعر » الأرسطي على النقد العربي ، ولكن قبل ذلك يجب أن يشار إلى أن الأعمال التي قدمها هاينريكس وشولر بخاصة ، تشكل ـ كما سبقت الإشارة ـ مرحلة جديدة في دراسة النظرية الأدبية عند العرب ، بتياريها الكبيرين : العربي الخالص ، والعربي الأرسطي ، ولذلك فإن منهجها العلمي الدقيق ، واعتمادها على مجموعة كبيرة من المصادر اليونانية والأوروبية ، غير المتوافرة بين أيدي الدارسين العرب ، يجعل منها أعمالاً ذات قيمة مرجعية كبيرة ، يجدر بدارسي النظرية النقدية عند العرب العودة إليها .

- ٤ -

يكاد المستشرقون يجمعون على أن كتاب « الشعر » الأرسطي لم يترك آثاراً حقيقية تذكر على النظرية الأدبية عند العرب ، ويعللون ذلك بالفارق الجوهري الكبير بين الشعر العربي والشعر اليوناني الذي حال بين العرب وبين فهم الأفكار الأرسطية .

وهذا موقف قرره على نحو قاطع المستشرق الإيطالي غابريلي الذي ذهب إلى أن اشتغال العرب بكتاب الشعر كان جهداً عقيماً ، وعملاً شاقاً بلا جدوى[٢٦] . وقد تبنى هاينريكس هذا الحكم في بداية الباب الذي خصصه لدراسة كتاب الشعر عند العرب ، وهو بهذا يقدم الحكم على البينات ، ويضع النتائج قبل المقدمات ، ثم يمضي بعد ذلك في تفصيل الأسباب التي باعدت بين الأفكار الأرسطية الواردة في كتاب الشعر وبين إمكانية تأثيرها على النظرية الأدبية عند العرب ، أو فهم العرب لها[٢٧] . فيرى « أن مضمون كتاب الشعر اللامفهوم عند العرب ، ورداءه المنطقي الغريب كانا السببين الرئيسين في أن هذا الكتاب لم يترك أثراً على الأطلاق (Keinerlei) حتى ولو بسيطاً على النظرية الأدبية عند العرب ـ باستثناء حازم القرطاجني ـ ، وكعمل منطقي فإنه قد دخل حقل عمل المنطقي وظل من اختصاصه ، ولم تكن له أدنى صلة بنظرية الشعر ، وهذا ما تظهره بوضوح الموسوعات العربية بدءاً بمفاتيح العلوم للخوارزمي وحتى مقدمة ابن خلدون التي ظهر فيها كتاب الشعر في قائمة العلوم غير العربية ، في علوم المنطق . أما الشعر نفسه ، فإنه قد وضع في إطار العلوم العربية ، دون إشارة عابرة إلى علاقة ما بينهما »[٢٨] .

وفي مكان آخر كرر هاينريكس هذه الأفكار مشيراً إلى الفصل الحاد بين العلوم العربية وعلوم القدماء في إطار الثقافة الإسلامية ، وإلى أن الترجمات والشروح العربية لكتاب الشعر كانت رديئة ومشوهة ومحدودة الانتشار ، إضافة إلى ارتدائها رداء منطقياً جعل إمكانية حصول نوع من اللقاء بينها وبين معطيات الشعر العربي أمراً صعباً[٢٩] .

لقد جعل هذا الموقف هاينريكس ينصرف عن البحث في إمكانية وجود تأثيرات أرسطية في النظرية الأدبية عند العرب ، ويكتفي ، تدعيماً لرأيه ، بإيراد رفض ابن الأثيرلإمكانية وقوع الشعراء المحدثين تحت تأثير العلوم اليونانية ، ورفضه كذلك أن

يكون لكلام ابن سينا في الشعر والخطابة تأثير على الأدب العربي ، يقول : « وكل الذي ذكره (ابن سينا) لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئاً »(٣٠) .

ومن الجدير ذكره هنا أن هاينريكس لم يقف على رد ابن أبي الحديد على ابن الأثير ، فقد اتهمه بعدم فهم ما يرمي إليه ابن سينا ، وذهب إلى بيان المقصود بالقياس الشعري المخيل ، وتأثيره على النفس ببسطها أو بقبضها .

يقول ابن أبي الحديد : « والذي يريدونه بالشعر يأتي في كل قياس مخيل ، يعلم العاقل كذبه ، لكنه يحدث له مع ذلك نوع قبض أو بسط ، أو إقدام أو إحجام ، كما يقال : لا تأكلوا العسل فإنه ثمرة مقيئة ، أو يقال للحلواء الرطبة المزعفرة لا تأكلها فإنها غائط . فالعقل والحس يكذبان هذا الكلام الذي هو في قوة قياس ، صورته هكذا : كل غائط فهو غير مأكله ، ومع علمه بكذبه ينقبض عن الأكل . وأكثر إقدام الناس وإحجامهم بسبب هذه التخيلات والأوهام ، وهي الأقيسة الشعرية التي يذكرونها ، وإنما سميت شعرية لمشابهتها مقاصد الشعراء في تخيلاتهم وتزويقاتهم »(٣١) .

وهذا النص يتضمن أهم التصورات والمصطلحات الأساسية المشكلة لنظرية الشعر عند ابن سينا . ومن الملاحظ أنه ، بكامله ، ليس موجوداً في كتاب واحد من كتب ابن سينا ، بل في غير كتاب ، فإذا كان بالإمكان رد الإشارة إلى التخييل ، وأثره من البسط والقبض ، وأن الناس يتبعون تخيلاتهم إلى « فن الشعر »(٣٢) ، فإن القياس الشعري والأمثلة التي أوردها عليه يمكن أن نجدها في كتابي « القياس » و « البرهان »(٣٣) .

ولا شك أن لهذا النص قيمته ، فهو مرتبط بحوار يفترض أن يكون مطروحاً ومعروفاً آنذاك بين الأدباء حول بعض المفاهيم النقدية الفلسفية . وابن أبي الحديد في استشهاده بهذا النص يمثل موقف المستقبل المدرك لأبعاد المصطلح الفلسفي ، العارف بمصادره . ويستطيع المرء أن يذهب إلى القول : إن ابن أبي الحديد لم يكن الوحيد

الممثل لهذا الموقف ، ولذا فإن شولر في بحثه عن « القياس الشعري » كان يمكن أن يفيد من هذا النص لو وقف عليه ، كما كان يمكن أن يفيد من الدراسة القيمة لجابر عصفور حول الخيال والصورة التي ذهب فيها إلى تأثر عبدالقاهر الجرجاني بالفلاسفة وشروحهم لأرسطو، وهو ما يتناقض مع ما ذهب إليه شولر(٣٤) .

إن الفكرة الشائعة حول عدم تسرب تأثيرات أرسطية ، أو تأثيرات منبثقة عن اشتغال الفلاسفة المسلمين بفن الشعر الأرسطي ، إلى النظرية الأدبية عند العرب ، قد لا تصح على إطلاقها ، ذلك لأن القراءة المتأنية لكتب النقد والبلاغة العربية ، ستجعل من اليسير تلمس العديد من الأفكار والمفاهيم الأرسطية ، أو الفلسفية التي تسربت إلى النظرية الأدبية عند العرب ، حتى وإن طرأت عليها تحويرات وتغييرات في دلالاتها . ويمكن أن يشار هنا إلى مفهوم التخييل الذي يشكل عمود نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين ، هذا المفهوم يمكن أن يقف عليه المرء في كثير من الكتب النقدية والأدبية العربية ، يجده مثلاً في : الصناعتين للعسكري ، والعمدة لابن رشيق ، وطيف الخيال للشريف المرتضى ، والاقتضاب للبطليوسي ، وألف باء للبلوي ، ومقدمة ديوان ابن خفاجة ، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، والفلك الدائر لابن أبي الحديد ، وقد وقف على هذه المواطن ودرسها جابر عصفور في بحثه عن الخيال والصورة(٣٥) .

وكذلك فإن النقاد العرب قد أفادوا في موقفهم من قضية الصدق والكذب في الشعر من الأفكار الأرسطية ، إلى حد ذهب معه بورغل إلى القول : إن أرسطو هو أبو هذه القضية عند العرب(٣٦) .

إن الهدف من إيراد بعض الأفكار الأرسطية أو الإشارة إليها ، أو على نحو أدق بعض الأفكار الفلسفية ، التي أثرت في نظرية الأدب عند العرب هو لبيان أن الحكم المطلق بأن النظرية النقدية عند العرب لم تتأثر بكتاب الشعر الأرسطي كما جاء في بعض دراسات

المستشرقين وكذلك عند بعض الباحثين العرب مثل عبدالرحمن بدوي ، وسعد مصلوح على سبيل المثال[٣٧] ، قد لا يكون صحيحاً ، وأنه بحاجة إلى إعادة نظر على الأقل .

وثمة ظاهرة يجب التوقف عندها ، وهي أن المستشرقين الألمان الذين ذكرت أعمالهم هنا ، لم يلتفتوا إلى الدراسات العربية المعاصرة التي بحثت القضايا نفسها التي بحثوها ، فهاينريكس لم يعد إلى كتاب شكري عياد ودراسته عن أثر فن الشعر الأرسطي على النظرية الأدبية عند العـرب ، كما لم يعد إلى بحث جابر عصفور عن « الخيال والصورة » وهو يشبه بحثه عن « الترابط القديم بين الخيال والشعر عند العرب » ، بل إنه يلتقي معه في كثير من الجوانب التي تناولها[٣٨] . وكذلك فإن هذا البحث ذو علاقة كبيرة ببحث شولر « القياس الشعري » لكن شولر كذلك لم يعد إلى أية دراسات عربية معاصرة في كتابه وفي بحثه المشار إليهما سابقاً[٣٩] .

وكذلك فإن الباحثين العرب المعاصرين الذين كتبوا في الموضوعات نفسها لم يقفوا على أي من دراسات المستشرقين هذه ، فعلى سبيل المثال ، لم ترد أية إشارة لدى ألفت الروبي في كتابها « نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين » إلى أيّ من أعمال هؤلاء المستشرقين أو غيرهم ، وكذلك الحال في كتاب « نظرية المحاكاة في النقد العربي القديم » لعصام قصبجي . أما في أفضل الأحوال فقد ذكر مصطفى الجوزو كتابي هاينريكس وشولر ، وعناوين بعض المقالات لمستشرقين آخرين دون أن يفيد منها في كتابه « نظريات الشعر عند العرب »[٤٠] .

وليس ثمّة تبرير يسوغ للمستشرقين عدم اطلاعهم على الدراسات العربية ، أو وقوفهم عليها ، وكذلك فإن الباحثين العرب لا مبرر لهم في عدم اطلاعهم على مثل هذه الدراسات وبخاصة أن دراساتهم الحديثة تعجّ بالاقتباسات من كتب النقد والأدب العربي المكتوبة بلغات مختلفة ، فمن القمين بنا أولاً الاطلاع على ما كتبه الآخرون عن ثقافتنا وأدبنا بصورة مباشرة ، وما كتبوه ليس بالقليل ، كما أنه ليس بالعرضي ، بل هو يمس قضايا الثقافة العربية الجوهرية .

الهـوامش

١ ـ حول اشتغال العرب بفن الشعر الأرسطي انظر :

عبدالرحمن بدوي : فن الشعر ٥٠ ـ ٥٦ .

Heinrichs : Arabische Dichtung 111 - 163 .

إحسان عباس : تاريخ النقد ١٨٦ ـ ١٨٧ ، ٢١٤ ، ٤١١ ، ٥٢١ .

٢ ـ انظـر : Fuhrmann : Einführung S. 198 .

وقد وقف Fuhrmann عند روايـة كتـاب الشعـر الأرسطي فـي أوروبـا وأشار إلـى ترجمة متى بن يونس في كلمته الختامية التي ألحقها بترجمته الألمانية لفن الشعر الأرسطي . انظر :

Aristoteles : Poetik 173 - 178

٣ ـ انظـر : Fuhrmann : Einführung S. 188 - 291 .

وعبدالرحمن بدوي : فن الشعر ١٢ ـ ٢٧ .

٤ ـ انظـر : Heinrichs : Die Antike 254

٥ ـ عبدالرحمن بدوي : فن الشعر ٣٣ ـ ٣٧ .

٦ ـ شكري عياد : كتاب أرسطو طاليس في الشعر ٥ .

٧ ـ انظـر : عبدالرحمن بدوي : فن الشعر ٣٧ ، شكري عياد : كتاب أرسطوطاليس ١٩ ـ ٢٠ .

٨ ـ ظهرت هذه المقالة سنة ١٩٣٤ في مجلة :

Studi italiani di Filologia classica N. S. 11 (1934), 5 - 14.

ثم نشرت في كتاب Walzer, R.: Greek into Arabic 129 - 136

٩ ـ انظـر : Arberry, Arthur : Farabi's Canons of Poetry. In : Rivista degli Studi Orientali, 17 (1938) 266 - 278.

١٠ـ شكري عياد : كتاب أرسطو طاليس ٢٠ ـ ٢١ .

Francesco Gabriele : Estetica e poesia araba nell' interpretazione della poetica aristotelica presso Avicenna e Averroe. In : Rivista degli Studi orientali 12 (1929), 291 - 331.

١١ـ حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ٩٩ .

Heinrichs : Arabische Dichtung 155, 163

Schoeler : Grundprobleme 1, 25 - 29, 81.

١٢ـ كان هاينريكس قد عالج هـذه المسألـة في كتابة ، Arabische Dichtung حين عـرض لكتابات الفارابي عن فن الشعر الأرسطي .

١٣ـ دراسة بورغل دراسة نقدية مقارنـة موسعـة امتدت لتشمل قضيـة الصدق والكـذب في الأدب الفارسي .

وثمة دراسة معاصرة عن شرح ابن سينا لكتاب الشعر الأرسطي ، قسمها صاحبها (إسماعيل دحيات) إلى قسمين تناول في الأول الخلفية التاريخية لاشتغال العرب برواية كتاب الشعر الأرسطي وخص بالبحث الفارابي وابن سينا . أما القسم الثاني فهو ترجمة لشرح ابن سينا إلى الإنجليزية .

Ismail M. Dahiyat : Avicenna's Commentary on the poetics of Aristotle. A Critical Study with an Annotated Translation of the Text. Leiden 1974.

١٤ـ لا شك أن الدراسة الرائدة الأولـى التي عرضت لأثر كتاب الشعـر الأرسطي ـ من خلال شروح الفلاسفة له ـ على حازم القرطاجني هي دراسة شكري عياد في كتابه : كتاب أرسطو طاليس ٢٤١ ـ ١٤٦ . وهي مقتضبة كتبت قبل نشر « منهاج البلغاء » واعتمدت على مخطوطته . وللأسف فإن هاينريكس لم يقف على كتاب عياد عندما كتب دراسته .

١٥ـ حازم القرطاجني ومنهاج البلغاء ٦٢ ـ ١٤٦ .

١٦ـ انظـر Heinrichs : Arabische Dichtung 105 - 127

١٧ـ المصدر نفسه 121 - 123, 147 - 149

١٨ـ Heinrichs : Die Antike 252, 256 - 257

١٩ـ المصدر نفسه 256

٢٠ـ Schoeler : Grundprobleme 1.

٢١ـ المصدر نفسه 33, 57

٢٢ـ انظر حازم القرطاجني : منهاج البلغاء ٣٣٦ ـ ٣٥٣ .

Schoeler : Grundprobleme 85 - 111.

٢٣ـ لقد قارن شولر بين التصورات النقدية العربية والتصورات النقدية في النظرية الأوربية في العصور الوسطى فعندما تحدث عن المطبوع أو الطبع ، والمتكلف أو المتصنع قرنه بالثنائية المشهورة Ars - natura انظر كتابه 51 على سبيل المثال .

٢٤ـ المصدر نفسه Schoeler : Grundprobleme 17 - 19

٢٥ـ Schoeler : Poetische Syllogismus 78 - 79.

٢٦ـ انظر شكري عياد : كتاب أرسطو طاليس ٢٠ وقارن

Heinrichs : Arabische Dichtung 105.

٢٧ـ Heinrichs : Arabische Dichtung 105 - 106

٢٨ـ المصدر نفسه 108

٢٩ـ Heinrichs : Poetik 188 - 189

٣٠ـ المصدر نفسه 111 - 109

ونص ابن الأثير في : المثل السائر ٢/٥ .

٣١ـ ابن أبي الحديد : الفلك الدائر ١٩٠ ـ ١٩٢ .

٣٢ـ انظر فن الشعر (بدوي) ١٦١ ـ ١٦٢ .

٣٣ـ ابن سينا : القياس ٥ ، البرهان ١٧ .

٣٤ـ جابر عصفور : الصورة الفنية ٨٠ ـ ٨٢ .

٣٥ـ انظر المصدر نفسه ٧٧ ـ ٨٤ ، وانظر مصادره .

٣٦ـ Bürgel : Beste Dichtung 37

٣٧ـ انظر مناقشة حول هذه القضية عند شكري عياد : كتاب أرسطوطاليس ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

٣٨ـ انظر مصادره ومراجعه في كتابه Grundprobleme

وفي بحثه Poetische Syllogismus

٣٩ـ انظر كتابي : ألفت الروبي : نظرية المحاكاة عند الفلاسفة المسلمين .

عصام قصبجي : نظرية المحاكاة في النقد العربي القديم .

٤٠ـ مصطفى الجوزو : نظريات الشعر عند العرب ٩ .

المصادر العربيـــة

- ابن الأثير ، ضياء الدين : المثـــل السائر في أدب الكاتب والشاعـــر ، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، القاهرة ١٩٥٩ - ١٩٦٢م .
- بدوي ، عبدالرحمن : أرسطوطاليس ، فـن الشعـــر مع الترجمة العربيـــة القديمـــة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد ، القاهرة د. ت .
- الجوزو ، مصطفى : نظريات الشعر عند العـــرب (الجاهلية والعصور الإسلاميـــة) ١ ، ط١ ، بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م .
- ابن أبي الحديد : الفلك الدائر على المثل السائر (ضمن الجزء الرابع من المثل السائر) .
- الروبي ، ألفت : نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين ، من الكندي حتى ابن رشد ، ط١ ، بيروت ١٩٨٣م .
- ابن سينا : القياس ، تحقيق سعيد زايد ، القاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٦٤م .
  : البرهان ، تحقيق عبدالرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٥٤م .
- عباس ، إحسان : تاريخ النقد الأدبي عند العـرب ، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري . دار الثقافة ، ط٤ ، بيروت ١٩٨٣م .
- عصفور ، جابر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، القاهرة ١٩٧٣م .
- عيـــاد ، شكـــري محمد : كتـاب أرسطوطاليس فـــي الشعـــر ، نقـــل أبـــي بشر متى بن يونس القنائي من السرياني إلى العربي ، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية ، شكري عياد القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .
- القرطاجنـــي ، حـــازم : منهـــاج البلغـــاء وسراج الأدبـــاء ، تحقيـــق محمـــد الحبيب بن الخوجة ، تونس ١٩٦٦م .
- قصبجي ، عصام : نظرية المحاكاة في النقد العربي القديم ، دراسة تطبيقية في شعر أبي تمام وابن الرومي والمتنبي . دمشق ، ط١ ، ١٩٨٣م .
- ابن النديم ، محمد بن أبي يعقوب إسحاق : الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

المصادر الأجنبيـــة

Arberr, Arthur : Farabi's Canons of poetry. In : Rivista degli studi Orientali, 17 (1938) 266 - 278.

Aristoteles : Poetik. Gieschisch/Deutsch. übersezt und Herausgegeben von Manfred Fuhrmann. Stuttgart 1984. (Reclam).

Bürgel, J. Christoph : Die beste Dichtung ist die Lügenreichste in : Oriens 23/24 (1970 - 71) S. 7. 102.

Dahiyat, Ismail, M. : Avicenna's Commentary on the poetics of Aristotle. Critical Study with an Annotated Translation of the Text. Leiden 1974.

Fuhrmann, Manfred : Einführung in die antike Dichtungstheorie . Darmstadt 1973.

Heinrichs, Wolfhart : Die arabische Dichtung und die Grieschische Poetik . Házim al - Qartaǧánnis Grundlegung der Poetik mit Hilfe aristotelischer Begriffe . Beirut 1969 .

-------- : Die antike Verknüpfung von phantasia und Dichtung bei Arabern . In : ZDMG 128 (1978), S. 252 - 298 .

-------- : Poetik, Rhetorik, Literaturkritik, Metrik und Reimlehre. In : Grundris der arabischen Philologie. Band II : Literaturwissenschaft . Herausgegeben von Helmut Gatje . Wiesbaden 1987 . S. 177 - 207 .

Schoeler, Gregor : Einige Grundprobleme der autochthonen und der aristotelischen arabischen Literaturtheorie Házim al - Qartaǧánnis Kapital über die Zielsetzungen der Dichtung und die Vorgeschichte der in ihm dargelegten Gedanken . Wiesbaden 1975 .

-------- : Poetische Syllogismus. Ein Beitrag zum Verstandnis der Logischen Poetik der Araber . In : ZDMG. Bd 133 (1983). S. 44 - 92 .

Tktatsch, Jaroslaus : Die arabische Übersetzung der Poetik des Aristoteles und die Grundlage der Kritik des grieschischen Textes. 2 Bd. Wien und Leipzig 1928 - 1932 .

Walzer, Richard : Zur Traditiongeschichte der aristotelischen Poetik. In : Greek into Arabic, Essays on Islamic Philosophy. Oxford 1962.